الفصل الثالث

فقه الباطن وأثره في التوازن بين الروح والجسد

تمهيد

احتلت قضية فقه الباطن مساحة كبيرة من الفكر الصوفي، بطريقة منهجية منقطعة النظير، وليس أدل على هذا من أن أعلام التصوف الكبار قد أعاروا هذا الموضوع عناية كبيرة، مثل الإمام الطوسي في اللمع، والقشيري في رسالته، والهجويري في كتابه المهم كشف المحجوب، والإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين.

لقد دبج فقهاء الإسلام أمهات الكتب والمراجع حول الفقه الظاهري من الأحكام الشرعية وهناك الموسوعات القديمة والحديثة مثل بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد، وفي الحديث والمعاصر مثل الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي، والفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، وفقه السنة للسيد سابق وغيرهم من العلماء الذين تركوا تركة علمية هائلة في هذا الصدد.

وهذه الدراسة تطمح إلى تسليط الضوء على أبعاد هذه القضية في حدود المساحة المحددة لها.

وتنقسم الدراسة إلى العناصر التالية:

١- إشكالية فقه الباطن.

٢- فقه الظاهر والعلاقة بينه وبين فقه الباطن.

٣- الدلالات الذوقية للعبادات وعلاقتها بفقه الباطن.

٤- التوازن النفسي بين الروح والجسد من خلال الفهم الصحيح لفقه الباطن.

٥- ضرورة الاهتمام بفقه الباطن، وعلاقته بالواقع في حياتنا المعاصرة.

أولاً: إشكاليه فقه الباطن

يشير العلامة الشيخ عبد الباري الندوي في كتابة التصوف والحياة إلى حقيقة التصوف، ويدور حول أن (الإنسان الكامل) وجهين (الظاهر) و(الباطن) أو القالب والقلب، كذلك ترى (للدين الكامل) وجهين (الشريعة) و(الطريقة) وكما أن الفقهاء

يستنبطون في الشريعة أعمالاً وأحكامًا ظاهرة كذلك الصوفية يستنبطون ويستخرجون من طريقة التصوف أعمال القلب والباطن وأحكامهما.

يمكننا أن نشرح ذلك في عبارة أخرى فنقول: إن التصوف يحل من الباطن ذلك المكان الذي يحله من الظاهر (الفقه) فكما أن للصلاة والصيام وغيرهما من الأعمال والعبادات صورة ظاهرة توجد أحكامها ومسائلها في علم الفقه، كذلك الخضوع والخشية وحضور القلب، أو ذكر الله تعالى هو غاية الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. صورة باطنة توجد أحكامها وتفاصيلها في هذا العلم الذي يستحق أن يسمى (فقه الباطن) وكما أن العزوف عن الطعام والشراب في وقت محدد يسمى صومًا في الأعمال الظاهرة كذلك باطنة يسمى التقوى[١].

الواقع أن هذا التعريف المحدد -كما ألمحنا- يؤكد على أن علوم الباطن هي كذلك جزء من الشريعة مثل العلوم الظاهرة بعينها وهي تنبع من صميم الشريعة كما أن العلوم الظاهرة تنبع من صميمها، ولذلك لن يكون الرجل الذي يجهل الفقه الباطني ويكرهه رجلاً عادياً يبدي جهله لعلم ما يكرهه بل إنما يكون رجلاً يحرم نفسه حقيقة الدين ولبابه ويمنع نفسه من الكمال الديني ودرجة الإحسان[٢].

ويجدر بنا أن نشير أيضًا إلى أن فقه الباطن بمثابة قانون لأعمال القلب[٣]. وقد أشارت نصوص القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة حيث قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. وجاء في الحديث: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٤].

ويربط الصوفية بين فقه الباطن والغاية العظمى من التجربة الصوفية: وهو قهر دواعي شهوات البدن أو ضبطها وإحداث نوع من التوافق النفسي عند الصوفي، وهذا من شأنه أن يجعل الصوفي متحررًا من كل مخاوفه، وشاعرًا براحة نفسية عميقة، أو طمأنينة تتحقق معها سعادته[٥].

---

(١) العلامة الشيخ عبد الباري الندوي: بين التصوف والحياة، دار الفارابي للنشر، ط١، ٢٠٠٣، ص٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٦٥.

(٣) المرجع السابق، بتصرف ص٤٩.

(٤) وهو بعض الحديث انظر ما رواه البخاري في كتاب الإيمان.

(٥) أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، ص٧.

إذن ننتهي من ذلك أن فقه الباطن يعني تزكية النفوس وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية[1] وهذا يمهد للحديث عن الصلة بين الظاهر والباطن أو الشريعة والحقيقة -كما هو معلوم- عند جهابذة الصوفية.

ثانيًا: فقه الظاهر والصلة بينه وبين فقه الباطن

يربط الصوفية الخلص، برباط وثيق بين الشريعة والحقيقة أو الظاهر والباطن، وفي هذا الصدد يذهب الطوسي في كتابه اللمع، الذي يؤكد فيه على هذا المعنى، فيقول إن علم الشريعة علم واحد وهو اسم واحد يجمع معنيين: الرواية والدراية، فإن جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرَّد القول في العلم: أنه ظاهر أو باطن؛ لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر. والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك، فهذه العبادات، وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء، وهي الجوارح، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال، مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والرضا، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب والشوق، والوجد، والوجل، والحزن، والندم، والحياء، والخجل، والتعظيم، والإجلال والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ، علمه من علمه وجهله من جهله، فإذا قلنا علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة وهي القلب، كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠][2].

---

(١) الندوى: بين التصوف والحياة.

(٢) الطوسي، اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود- طه عبد الباقي سرور، نشرة لجنة التراث الصوفي، ص٤٤.

ويشير الإمام عبد الحليم محمود إلى الالتزام بالشريعة، ويستشهد بأقوال أعلام الصوفية مثل قول الإمام الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته، ولزم طريقته. وقال أيضًا: من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدي به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة[1].

كما أن الصوفية ينقدون إسقاط التكاليف بزعم الاحتفاء بفقه الباطن على حساب فقه الظاهر أو إسقاط الشريعة بدعوى الحقيقة!

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد قال: (أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل). فقال الجنيد: (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا)[2].

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالي، فإننا نجده يقول: (اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعي فيه كثير ونحن نعرفك علامة له: وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته، إيرادًا، وإصدارًا، وإقدامًا وإحجامًا، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهل الفرائض؟! فإن قلت: فهل تنتهي رتبة السالك إلى الحد الذي ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات، ولا يضره بعض المحظورات، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور؟ وأقول لك: اعلم أن هذا عين الغرور، وأن المحققين قالوا: لو رأيت إنسانًا يطير في الهواء، ويمشي على الماء، وهو يتعاطى أمرًا يخالف الشرع، فاعلم أنه شيطان..). كما أن الإمام الشاذلي رضي الله عنه يؤكد على هذه الحقيقة بقوله: إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف، ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة[3].

أظننا لسنا في حاجة إلى التأكيد على الحقيقة والشريعة أو الظاهر والباطن مرتبطان

---

(١) عبد الحليم محمود، التصوف «قضية المنقذ من الضلال»، دار المعارف، ط٣، ص١٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٣١.

(٣) المرجع السابق، ص١٣٢.

في اتصال وثيق لا ينفصل أحدهما عن الآخر وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون والقشيري وغيرهما من الصوفية[1].

وفي الختام يشير الشيخ سعيد النورسي إلى زبدة الحق بقوله: محال أن يصل أحد إلى الأنوار الحقيقية للحقيقة خارج الصراط الذي اختطه الرسول ﷺ، ومن دون اتباع لخطواته[2].

ثالثًا: الدلالات الذوقية للعبادات وعلاقتها بفقه الباطن

يربط الصوفية بين مفهوم فقه الباطن والدلالات الذوقية للعبادات برباط وثيق، سيما أن العبادة لها ظاهر وباطن ويضرب الإمام الهجويري لهذا الربط الوثيق بمثال من كل العبادات، ففي ميدان الصلاة ينطلق من قول الحق: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله عليه السلام: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»[3].

يقول والصلاة في اللغة بمعنى الانقياد، وهي جريان عبارات الفقهاء عبارة مخصوصة تطلق على هذه الأحكام المعتادة، وهي أمر من الحق تعالى أن: أقيموها خمس مرات. ولها شروط قبل الدخول فيها، أولها: الطهارة من النجاسة في الظاهر...، وهكذا ينطلق الهجويري في تأسيسه لفقه الظاهر، ثم يعمق الدلالة الذوقية للعبادة، وأنها الطريق للارتقاء إلى مدارج السالكين بقوله: اعلم أن الصلاة عبادة يجد فيها المريدون طريق الحق من البداية إلى النهاية، وتنكشف فيها مقاماتهم: فالطهارة للمريدين في مكان التوبة، والتعلق بشيخ في مكان التوجه إلى القبلة، والقيام بمجاهدة النفس في مكان القيام، ودوام الذكر في مكان القراءة، والتواضع في مكان الركوع، ومعرفة النفس في مكان السجود، والتشهد في مكان مقام الأنس، والسلام في مكان التفريد من الدنيا والخروج من قيد المقامات ولذلك فإن الرسول ﷺ حين كان ينقطع عن كل المشارب، كان يطلب الشوق في محل كمال الحيرة، ويتعلق بالمشرب، وعندئذ كان يقول: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**»[4].

---

(١) انظر دراستنا: التصوف عند ابن خلدون «دراسة نقدية»، دار العلم، مصر، ٢٠٠١، ص٤١ وما بعدها.

(٢) سعيد النورسي، أنوار الحقيقة «مباحث في التصوف والسلوك»، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص٨٤.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

(٤) الهجويري، كشف المحجوب، ترجمة إسعاد قنديل، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢/ ٥٤٣.

من ثَمَّ فإن الصلاة، التي تنفذ من الظاهر إلى الباطن، أو تجدها في الإسلام طهارة للنفس، وترقيقًا للقلب، وتحلية الإنسان بفضائل الهيبة والخشوع والمشاهدة والمراقبة والمناجاة مع الله تعالى والأنس به، وبدون هذه المعاني تكون الصلاة هيكلاً فارغًا من المضمون[1].

وفي فريضة الزكاة نجد الإمام الغزالي يفرد لها بابًا كبيرًا في إحياء علوم الدين تحت عنوان كتاب أسرار الزكاة، ينطلق من التأصيل لمشروعية الزكاة وأنواعها وأسباب وجوبها والزكوات المتعلقة بها: زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر، ويرى أن من المعاني الباطنة، الإسرار أو الإخفاء خشية الوقوع في الرياء، وبالغ بعضهم في فضل الإخفاء حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطي وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم. وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه. كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازًا من الرياء والسمعة[2].

وهذا ما أكد عليه الإمام الهجويري أيضًا، ويسير في نفس المعنى من أن حقيقة الزكاة أداء شكر النعمة من جنس النعمة. والصحة نعمة عظيمة، ولكل عضو زكاة وذلك أن يجعل الإنسان كل أعضائه مستغرقة في الخدمة، ومشغولة بالعبادة، ولا يميل إلى أي لهو أو لعب حتى يكون قد أدى حق زكاة النعمة. وللنعم الباطنة أيضًا زكاة، ولا يمكن إحصاء حقيقتها لكثرتها، فينبغي لها زكاة تناسبها، وذلك عرفان النعمة الظاهرة والباطنة. وإذا عرف العبد أن نعمة الحق تعالى عليه لا حدود لها، فإنه يجب عليه لزكاة النعمة التي لا حد لها شكر لا حد له[3].

وفي أسرار الصوم نجد أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص. أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة

(١) أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص١٣.
(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/ ٢١٥.
(٣) الهجويري، كشف المحجوب، ٢/ ٥٥٧.

وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية[1].

وفي فريضة الحج نجد أشواق الصوفية وإلهاماتهم، تنفذ من القشور إلى اللباب، ومن الظاهر إلى الباطن، فيقول الغزالي: اعلم أن أول الحج الفهم، أعني فهم موقع الحج في الدين، ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه، ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم أخذ الراحلة ثم الخروج ثم المسير في البادية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخوله مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق. أما الفهم اعلم أنه إلى لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات. وأما الشوق: فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصد الله عز وجل وزائر له. وأما العزم: فليعلم أنه بعزمه قاصداً إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات. وأما قطع العلائق: فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي. وأما الزاد: فليطلبه من حلال وأما الطواف بالبيت: فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلب فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة. وأما الراحلة: إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل[2].

لعل حديثنا آنف الذكر عن الدلالات الذوقية للعبادات يمهد للولوج إلى التوازن النفسي بين الروح والجسد من خلال المنهج الصحيح لفقه الباطن.

رابعًا: التوازن النفسي بين الروح والجسد من خلال الفهم الصحيح لفقه الباطن

يرتبط هذا الجانب (التوازن النفسي بين الروح والجسد) عند الصوفية بفقه الباطن برباط وثيق، بل إن المقاصد العليا لفقه الباطن هو الوصول إلى هذا التوازن.

ويجدر بنا أن نشير إلى مفهوم الدنيا في نظر السالك، لقد اعتقد البعض أن هناك علاقة تنافر بين الدنيا والآخرة، وأن الصوفي الحق، ينأى بنفسه بعيداً عن الدنيا من أجل

(١) الغزالي، الإحياء، ١/ ٢٣٤.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٢٦٥.

الخلاص، والفوز بالآخرة، وهذا فهم خطأ وهذا ما أشار إليه الإمام عبد الحليم: لقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة. لقد حققها في ذروتها، فكانت صلاته، وكانت نسكه، وكانت حياته بأكملها، وكان موته لله رب العالمين.. لا شريك له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] لقد حققها موفورة تامة فآتاه الله عز الدنيا والآخرة[١].

وهناك الأحاديث التي تؤكد على أن الدنيا مزرعة للآخرة. يروى عن ابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور»[٢].

إن هذه الجمل الثلاث أوجز كلام في موضوع الزهد والتقوى، وفي حفظ التوازن بين الدنيا والآخرة وأكثرها ثراء بالمعنى. إن الإنسان غريب في هذه الدنيا فهو -حسب تعبير جلال الدين الرومي- ناي مقطوع من غابة القصب، ولأنه أبعد عن صاحبه الحقيقي، فإنه في أنين دائم طوال الحياة[٣].

لقد ربط الصوفية بين الدنيا والآخرة في رباط وثيق، صحيح جاءت الآيات القرآنية لتحذر الناس من الانغماس في شهوات الدنيا، ولكن فرق وفرق كبير أن نعيش للدنيا وأن نعيش في الدنيا من أجل الآخرة، وهذه النظرة الشمولية المتوازنة التي استوحاها الصوفية من الأحلام فالإسلام يجمع بين مطالب الروح والجسد في توازن لا يخل هذا بذاك من منطلق قول الحق: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. وهذا ما أكد عليه الإمام الغزالي، من أن حقيقة التعامل مع الدنيا من أجل الإقبال على الله بالكلية، وبكنه الهمة من أجل الفوز بالسعادة بعد الموت، وكيف أن فرقًا عديدة قد ضلت الطريق وأضلت ولم تنج منها إلا فرقة واحدة هم أهل السنة والجماعة وأن الفهم الصحيح لحقيقة الدنيا لا تتعارض مع الذكر والفكر والمجاهدة والمكابدة والانشغال بالكلية بالواحد الحق يقول: ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة، وإنما الناجي منها فرقة

(١) عبد الحليم محمود، قضية التصوف «المنقذ من الضلال»، دار المعارف، ص٨، ٩.

(٢) البخاري.

(٣) فتح الله كولن، النور الخالد «محمد مفخرة الإنسانية»، ص١٨٧.

واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل، ولا يترك كل شيء من الدنيا ولا يطلب كل شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوي به البدن على العبادة ومن السكون ما يحفظ عن الحر والبرد ومن الكسوة كذلك حتى إذا فرغ من شغل البدن أقبل على الله بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر وبقى ملازمًا لسياسة الشهوات ومراقبًا لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه الصلاة والسلام كما قال: «**الناجي منها واحدة**، قال: يا رسول الله ومن هم؟ قال: أهل السنة والجماعة. قيل ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**»[1].

ونخلص من هذا، أن الإسلام ينكر على المسلم أن يحب الدنيا حبّاً جما، بحيث يجعلها أكبر همه، ومبلغ علمه، ومناط آماله، ومحور أحلامه عليها وحدها يحرص، ولها وحدها يسعى[2].

وكما جاء في الحديث الذي رواه الحاكم، عن حذيفة رضي الله عنه قال: «من أصبح والدنيا همه، فليس من الله في شيء»[3].

خامسًا: ضرورة الاهتمام بفقه الباطن وعلاقته بالواقع في حياتنا المعاصرة

من خلال عرضنا لإشكالية مفهوم «فقه الباطن» وما ترتب على ذلك من آراء وأفكار، ارتباط فقه الظاهر بفقه الباطن، وأن غيبة فقه الباطن في حياتنا المعاصرة قد أدى إلى عبادة شكلية لا تصل إلى أعمق أعماق الإنسان.

ومن ثَمَّ فإن تطبيق معايير فقه الباطن تؤدي إلى العبادة الحقة والتي تجسدت في

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣/ ٢٣٠، (الإمام الجنيد، رسالة القصد إلى الله تعالى، تحقيق جمال رجب سيدبي، ص٤٣ وما بعدها).

(٢) يوسف القرضاوي، في الطريق إلى الله «الورع والزهد»، مكتبة وهبة، ص ٨٥.

(٣) رواه الحاكم في الرقائق.

شخص النبي ﷺ وفي سلوك الصحابة، ثم تمثل هذا النهج -فيما بعد- في سلوك الصوفية.

فمن فوائد الالتزام بفقه الباطن، وما ينبغي على المريد أو السالك في الطريق من معالجة لمشكلات وهموم الإنسان المعاصر، ولأضرب ذلك بمثال أن الخلوة (بمعناها الكامل) كما قال الأكابر من الصوفية لمضاعفة الشحنة الإيمانية، والترقي في معارج القرب وطلب المدد، أو على الأقل زيادة طاقة اليقين والعلاقة بالله في نفس المريد شأن خلوة الرسول ﷺ في رمضان، وبهذا تصبح الخلوة ضرورة إنسانية.

وكما يؤكد أطباء الصحة الجسمية والنفسية ضرورة تعيين يوم دوري للراحة والاستجمام، فكذلك يقرر أطباء الأرواح ضرورة تعيين فترة للتخلص من كافة الرواسب والمشاغل والشواغل، والمهام والهموم والانصراف المطلق إلى الله، والاستمداد من الطاقة المقدسة للتخلص من المتاعب والإجهادات والمعايب المعنوية والعودة إلى مواجهة الحياة[1].

زبدة القول في هذه الدراسة: أن الفهم الصحيح لفقه الباطن عند جهابذة الصوفية، أضحى ضرورة للمسلم في حياته المعاصرة من أجل انسجام الظاهر والباطن معًا.

●●●

(١) محمد زكي إبراهيم، أصول الوصول، مطبوعات العشيرة المحمدية، ص١٠٨.